أثر الحقبة الاستعمارية الفرنسية في الفكر العقدي الجزائري

فقيقي محمد الكبير/ جامعة بشار

مقدمة :

لقد كان للسياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر طوال فترة الاحتلال 1830-1962 بالغ الأثر في توجيه الفكر العقدي عند عامة المجتمع الجزائري نحو الاتجاه السلبي أحيانا، وأحيانا أخرى تنحى به منحا ايجابيا، من خلال مختلف المشاريع الاستعمارية الدينية والثقافية والاقتصادية. ..، بالنظر إلى طول الفترة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، وطبيعة الاستعمار القائم على الاستيطان والاستغلال المفرط للثروات ،وتقويض مؤسسات المجتمع الجزائري الدينية والثقافية، والاقتصادية والاجتماعية، والتسلط المباشر على مقومات الأمة الجزائرية.

أدرك الاستعمار الفرنسي منذ السنوات الأولى للاحتلال عناصر القوة والضعف في العقيدة الدينية للمجتمع الجزائري، بحكم تعامله المسبق مع الدولة العثمانية التي أخضعت الجزائر لنفوذها منذ 1518م والى سنة 1830، إضافة إلى تجربة فرنسا الاستعمارية السابقة في احتلال مصر 1798م-1801م. وكذلك سياستها التمهيدية لاحتلال الجزائر من خلال الحملات الاستكشافية وحركة التبشير والتنصير المسيحي.

تجلت السياسة الاستعمارية في التعامل مع عقيدة الجزائريين من خلال مواجهتها للطرق والزوايا الصوفية على النحو الذي تجسد في المقاومات الشعبية خلال القرن 19 م ،وما صاحبه من تحطيم لبعض الأضرحة والقباب والأماكن المقدسة المرتبطة بالأولياء ورجال التصوف مثل ما حدث لقبة سيدي الشيخ مؤسس الطريقة الشيخية على اثر مواجهة احد أحفاده وهو الشيخ بوعمامة للاحتلال الفرنسي، ومحاولة التصفية النهائية للزاوية والطريقة الرحمانية على اثر مقاومة المقراني والشيخ الحداد 1871- 1872-.. هذا الفكر العقدي ظل مترسخا في الأوساط الجزائرية حتى بعد جلاء الاستعمار الفرنسي. كل ذلك وما شاكله من إجراءات زاد ورسخ عقائد الشعب الجزائري في التمسك بالفكر الصوفي.

سوف نحاول في هذه الدراسة المتواضعة أن نقف عند مواطن التأثير الفرنسي في توجيه الفكر العقدي للجزائريين خلال المرحلة الاستعمارية، والنتائج المترتبة عن ذلك سلبا وإيجابا، ومنه نتعرف على مدى تمسك المجتمع الجزائري بعقيدته وبأصولها الكبرى، كما ندرك رد فعله تجاه السياسة الاستعمارية سعيا منه للحفاظ على عقيدته، ومظاهر الإفراط والتفريط في ذلك السعي.

بعد هذه المقدمة سأتناول الموضوع وفق العناصر التالية.

-العقيدة الدينية في السياسة الاستعمارية.

-العقيدة الدينية في المقاومة الوطنية.

- فكرة المهداوية واثرها على المقاومة.

-اثر الفكر الصوفي في عقيدة الجزائريين.

1- العقيدة الدينية في السياسة الاستعمارية

لقد اظهر المستعمرون الفرنسيون غداة احتلالهم للجزائر نزعتهم الدينية بشكل صارخ وأعلنوا عن الروح الصليبية للحملة الفرنسية، حيث قال دي بورمون –الحاكم العام الفرنسي للجزائر– بعدما استولى على مدينة الجزائر مباشرة مخاطبا جنوده :(لقد جددتم عهد الصليبيين)، كما كتب بوجولا – *poujoula* – وهو رحالة فرنسي وثيق الصلة بالماريشال بيجو – *bugeaud* – سنة 1844 أي في الفترة العصيبة من عهد الاحتلال، حينما سأله بيجو عن سبب مجيئهم إلى إفريقيا، فقال بوجولا : (لكي نواصل العمل الذي بدأه غودفروا – *godefroy* – ولويس السابع، وسان لويس)[1].

رأى الفرنسيون أن سقوط الجزائر هو سقوط لقلعة إسلامية، وعودة للمسيحية إلى ديارها، فعند دخولهم مدينة الجزائر يوم 11 جويلية 1830م، أقاموا احتفالا دينيا كبيرا في ساحة القصبة الرئيسية، يتقدمهم القائد دي بورمون، فرتلوا آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القران، التي أصبحت ميتة، والتي كانت تغطي كل الجدران[2].، كما أنهم حوّلوا أكبر مساجد العاصمة إلى كنيسة، وهو مسجد كتشاوة، الذي بناه حسن باشا سنة 1794م، وأسسوا أسقفية الجزائر سنة 1838م[3].

على مستوى الجزائر العاصمة تم تمسيح المؤسسات الدينية، فلم يبقى من المساجد أكثر من خمسة حسب إحصاء سنة 1899 م، بعد أن كان عددها وقت الاحتلال مقدر

1- الاشرف مصطفى، الجزائر الأمّة والمجتمع ،ترجمة حنفي بن عيسى،المؤسسة، و–للكتاب الجزائر،1983م، ص ،51.

2- سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية ،الجزء 1، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1992، ص، 72.

3- المرجع السابق، ص، 73.

ب6 176. منها ما حول إلى كنائس وبعضها هدم ،والبعض الأخر حول إلى مؤسسات عسكرية ونحوها، حتى الزوايا واجهت نفس المصير، فمنها ما تعرض للهدم أو البيع أو الحيازة من قبل المصالح الاستعمارية[1].

بل إن هذه التجاوزات شملت كذلك المقابر والأضرحة، حيث أمر القائد الفرنسي الدوق دو روفيقو سنة 1832 بتخريب المقبرة الإسلامية، بدعوى مد الطريق بين قلعة بوليلة وباب عزون، ومن اشهر الفضائح التي ارتكبها في هذا الصدد، تهريب عظام الموتى المسلمين من الجزائر إلى مرسيليا، لاستخدامها في فحم العظام وتبييض السكر[2].

لم يقتصر هذا الاستهتار بالمقدسات الدينية على مدينة العاصمة فحسب بل شمل باقي المدن الأخرى مثل قسنطينة ووهران وتلمسان. ..، فمدينة قسنطينة كان بها ساعة الاحتلال سبعون مسجدا وبيتا للصلاة، ولكن الفرنسيين تصرفوا في ذلك تصرف المالك، فجامع رحبة الصوف حولوه الى مخزن للشعير، ثم اسقطوا منارته، واستولت السلطات العسكرية على جامع القصبة، الذي كان من المساجد الفخمة في العهد الحفصي وكذا العثماني، كما هدمت مساجد وزوايا أخرى[3].

اعتمد الفرنسيون في تحطيم الإسلام ومقوماته بالجزائر على وسيلتين هما :

أ-نشر الخرافات، وتشجيعها بين الأوساط الإسلامية، واستعانوا في هذه الوسيلة بكل أصناف الدجالين والمشعوذين، وفي مقدمتهم أدعياء الطرق والزوايا الصوفية، الذين تحولت عندهم الرسالة الإسلامية إلى حرفة تجارية من اجل التكسب وجمع الثروة.

1- المرجع السابق، ص، ص، 77، 78.

2- المرجع السابق، ص، 78

3- المرجع السابق، ص، 80.

ب- نشر الإلحاد في أوساط الشباب الإسلامي بواسطة المدارس وغيرها من المؤسسات الدينية والثقافية، حتى وجد من بين كبار المثقفين الجزائريين من أنكر وجود امة حرة اسمها الجزائر، وأصبح السبيل ممهد لدعاة الاندماج في الثقافة فرنسا[1].

إن وعي الاستعمار الفرنسي بخبايا العقيدة الدينية للجزائريين كان واضحا، منذ الساعة الأولى للاحتلال، فكان يدرك نقاط الضعف في تلك العقيدة ،التي شابتها العديد من الشوائب عبر القرون المتلاحقة، وتجلى ذلك في أول بيان فرنسي إلى الجزائريين سنة 1830م[2] ، وأهم ما جاء فيه مما يهمنا في بحثنا هذا مايلي : (هذا أيها السادة ما بدا لي أن أكلمكم به، فهو نصيحة مني إليكم، فلا تغفلوا عنه، واعلموا بان صلاحكم إنما في قبوله والعمل عليه وأنَّ هلاككم لا يرده منكم احد أن عرضتكم عما نصحتكم وأنذرتكم به، وأيقنوا يقينا مؤكدا آن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى غير ممكن تغييره، لأنه مقدّر والمقدّر لابدّ آن يكون، السلام على من سمع وأطاع.)[3].

هذا المقتطف من البيان الفرنسي يحاول أن يكرس فكرة التسليم بالقدر مهما كان الأمر، باعتبار انه من الله تعالى، وكل ما جاء من عند الله فينبغي التسليم به والإذعان له، خاصة إذا كان الواسطة في ذلك هو سلطان وملك فرنسا المفوض من طرف الإله لحكم هذا الشعب، إن هذه الفكرة تعود بنا إلى العهود الأولى من تاريخ الإسلامي، حينما ظهرت

1- الورتيلاني، الفضيل، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، بدون تاريخ، ص، 139.

2- اورد نص البيان مترجما الى العربية المؤرخ سعد الله ،ابو القاسم، ابحاث واراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ط 3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990 م، ص، ص، 271، 280 ,

3- سعد الله، ابو القاسم، المرجع السابق، ص، 280.

الفرق العقائدية من جهمية وقدرية ومعتزلة وغيرها، وكذلك إلى مرحلة القرون الوسطى في أوروبا، عندما كان رجال الدين والكنيسة يتصرفون في مصير المجتمع بدعوى القضاء والقدر.

وهناك من الباحثين من يرى ان بعض مشائخ الطرق والزوايا الصوفية، كان لهم دور بارز في إقناع الشعب الجزائري على قبول السيطرة الاستعمارية والخضوع لها، بدعوى أن وجود الاحتلال هو من باب القضاء والقدر، الذي ينبغي التسليم به والصبر عليه[1].

ومن هنا نستخلص أن الاستعمار الفرنسي انطلق منذ البداية من أفكار عقائدية بالية يغلب عليه طابع التسليم المطلق وتعطيل العمل لرد البأس، والاتكالية والإرجاء ،من اجل التمكين لمشروعها الاستعماري، في مجتمع يذعن إلى حد كبير إلى فكرة التسليم المطلق للقدر دون الحرص الشديد على تغيير الوضع المقدّر، ولقد نجح الاستعمار الفرنسي في إحياء تلك الأفكار. التي كانت من العوائق في طريق المقاومة الوطنية.

2-العقيدة الدينية في المقاومة الوطنية :

إلا آن محاربة الاستعمار الصارخة للدين الإسلامي ومؤسساته بالجزائر جعل الشعب الجزائري يتعصب أكثر لدينه، ويضحي من اجله بكل الوسائل، بل إن الجزائريين عملوا على نشر الإسلام في داخل التراب الفرنسي نفسه، ففتحوا بباريس وغيرها من المدن الفرنسية

1- تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1984م، ص، 99. للمزيد من الإطلاع على فساد بعض الطرق الصوفية في الجزائر، انظر: المدني، احمد توفيق، كتاب الجزائر، ط2، نشر دار الكتاب الجزائري، 1963 م، ص، ص ،350،353 وكذلك: الفاسي، علال ،محاضرات في تاريخ المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، 1955م، ص، 13.

زهاء ثلاثين مركزا لتدريس أصول الإسلام وعلومه، وممارسة تعاليمه وشعائره، فكان يغشاها عشرات الألوف من أبناء الجزائر ومن أبناء الفرنسيين[1] .

وانعكس موقف الشعب الجزائري في برامج الحركة الوطنية، التي ظلت تعتمد إلى حد كبير على الدين طيلة العهد الاستعماري، سواء تعلق الأمر بحركة الجهاد التي استمرت طيلة القرن 19 م ،أو تعلق الأمر بالنضال السياسي منذ الحرب العالمية الأولى، وقد ازداد هذا العامل ظهورا وقوة أثناء الثورة التحريرية، ولم يكد يختفي إلا منذ برنامج طرابلس 1962م[2] ، وفريق أخر من الباحثين يحاول أن يفصل بين المقاومات التي غلب عليه الطابع السياسي، ومقاومات أخرى هيمنت عليها النزعة الدينية، استنادا إلى التقرير الفرنسي

المحرر في منتصف القرن 19 م، والصادر عام 1945م، والذي جاء فيه : (إن الجزائر تعرف الآن عهدا جديدا، فالحرب التي اندلعت فيها حاليا – يعني آخر الأربعينات من القرن 19 م- تبدو لنا ذات طابع يختلف عن طابع الحروب السابقة، فقبل سنة 1837م وسنة 1843 م كان عبد القادر يقاوم بنية تكوين قومية عربية، وتشكيل سلطة ذات سيادة، آما اليوم فان أفكار عدونا قد تغيرت، واتخذت الحرب طابعا دينيا.)[3]

3-فكرة المهداوية في المقاومة الوطنية :

1- الورتيلاني، الفضيل، الجزائر الثائرة، مرجع سابق، ص، 96.

2- سعد الله، أبحاث وأراء. ..، ج3، مرجع سابق، 15.

3- ابن العقون، عبد الرحمان بن ابراهيم، الكفاح القومي والسياسي، من خلال مذكرات معاصر، الفترة الاولى 1920-1936، الجزء الاول ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م. ص، 152. انظر جريدة الشعب الاسبوعي، الجزائر، عدد 19، افريل 1976 م، ص، 5.

لقد ترسخت عقيدة المهدي المنتظر في المجتمعات الإسلامية بمرور الوقت، لثبوتها في السنة النبوية من جهة، ولتحقيقها أمنية المجتمعات الإسلامية في ظهور الرجل المخلص والمنقذ أثناء الأوقات الحالكات والأزمات الحادة، فكان من الطبيعي آن يتمسك المجتمع الجزائري بهذه الفكرة أثناء الفترة العصيبة في تاريخه، وهي الفترة الاستعمارية الحديثة.

تجلت فكرة المهداوية في المقاومة الجزائرية أثناء المرحلة الثانية التي تلت مقاومة الأمير عبد القادر والحاج احمد باي، إذ آن انسحاب هذين الزعيمين من معترك المقاومة أصاب القاعدة الشعبية العريضة بنوع من الإحباط واليأس، فاستخدم زعماء المقاومة الجدد والذين أنتجتهما المقاومتين السابقتين، عقيدة المهدي المنتظر أو ما يعرف عند الجزائريين آنذاك بمولى الساعة، أو رجل الساعة.

عندما تمكنت القوات الفرنسية من القضاء على المقاومة المنظمة بقيادة الأمير واحمد باي،" تغير أسلوب المعارك والمقاومة حيث أصبحت تجري على غير النمط الذي ألفه الفرنسيون، حيث أخذت تتحول تدريجيا نحو المناطق الداخلية الوعرة كما انتقلت من حرب بين دولتين وجيشين نظاميين إلى حرب شعبية ،من النوع الذي يطلق عليه حاليا (حرب العصابات) يقودها زعماء محليون لست لهم ملامح واضحة مثل الأمير وأحمد باي.. . تخلقهم ظروف الصراع. فيجيئون ويذهبون دون أن يعرف الفرنسيون أصلهم.و لا مدى قوة نفوذهم بين القبائل بل حتى أسماءهم الحقيقية فكانوا يشتهرون بأسماء مثل بومعزة، بوبغلة. .. مما خلق صعوبات كبيرة للإدارة الفرنسية[1] "

إنَّ الغموض الذي أحاط بالكثير من زعماء المقاومة الشعبية في هذه المرحلة أي في أربعينيات القرن 19 م وما تلاها، رسخ في اعتقاد العامة بان هؤلاء يشبهون المهدي في

1- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشرو التوزيع ط2: ص 288

أسمائهم، وفي غيابهم عن أنظار الناس، مثل الشريف بومعزة، أو محمد بن عبد الله، الذي ظل مجهول الاسم والهوية، وكل ما نعرفه عنه إلى الآن لا يعد أن يكون أسطورة ممزوجة بالحقيقة، حيث ادعى النسب الشريف، وانتمى لإحدى الطرق، وأعلن انه مولى الساعة والمهدي المنتظر، ونادى بالجهاد، وأخفى اسمه الحقيقي، فلو لم يلقى القبض على بومعزة من، فيتمكن الناس من رؤيته والتحاور إليه، لاعتقدنا أن كل زعماء الجهاد في الجزائر من مجهولي الهوية يصدق عليهم كنية بومعزة[1]

لقد كان بومعزة بارعا، في استمالة قلوب الناس إليه بفضل شجاعته، ودعوته للجهاد، فضلا عن إظهاره للكرامات والخوارق ونحوها للعامة، فانبهر الناس بذلك ،بل إن اسم بومعزة قد أثار الرعب في صفوف الجيش الفرنسي، حتى أعلن احد الكتاب الفرنسيين أن بومعزة ليس شخصا، وإنما هو رمز، هو علم غير مرئي، وغير محسوس، انه عبارة عن أسطورة[2].

في عام 1845م ظهر مهدي آخر بناحية شرشال، وادعى للفرنسيين انه أخ لبومعزة، وان اسمه أيضا محمد بن عبد الله، وينتمي إلى الطريقة الطيبية، وانه جاء إلى الجزائر من المغرب الأقصى، كما جرى التقليد آنذاك، فمعظم الأشراف كانوا يدعون أنهم قدموا من الساقية الحمراء أو من فاس الادريسية[3]، عندما انسحب الأمير عبد القادر من تلمسان نحو المغرب الأقصى سنة 1846م، ظهر بتلمسان ما يعرف بالشيخ الفاضل، الذي ادّعى

1- سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية. ..مرجع سابق، ص، 293.

2- المرجع السابق، ص، 296.

3- سعد الله، الحركة الوطنية. ..، ص، 297.

السلطنة بها، وتدّعي المصادر الفرنسية أن الشيخ الفاضل كان يدعي انه مولى الساعة، وانه هاجم تلمسان بثمانمائة فارس، وأكثر من ألف راجل[1].

مهما يكن الأمر فان زعماء المقاومة الوطنية استخدموا كل الوسائل الممكنة لتجنيد الشعب الجزائري وتعبئته لمواجهة الاحتلال الفرنسي، مستعينين بالثقافة العقدية للمجتمع الجزائري، فتمكنوا من إيقاظ الهمم وشحذ العزائم وإرعاب العدو الفرنسي والحقوا به خسائر فادحة.

4-اثر الفكر الصوفي في عقيدة الجزائريين:

إن الطرق والزوايا الصوفية هي صاحبة الفضل الكبير في اندلاع الثورات الشعبية المنظمة وغير المنظمة خلال القرن 19 م، ولذلك امتزجت الثقافة الصوفية بالفكر العقدي للجزائريين، وأصبح التصوف يشكل العمق الوجداني والنفسي للمجتمع الجزائري

تجلت النزعة الصوفية بشكل واضح في ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871-1872 في شرق البلاد ووسطها، وثورة الشيخ بوعمامة، 1881-1904.في الجنوب الغربي الجزائري، فلقد تلقّى الشيخ بوعمامة تكوينا صوفيا محضا أثناء إقامته بقصر فجيج بالمغرب الأقصى، وأول عمل قام به عند دخوله ارض الجزائر هو تأسيس زاوية بقصر المغرار التحتاني بالقرب من العين الصفراء، تنتمي إلى طريقة أجداده الصوفية وهي الطريقة الشيخية، وتمكن بفضل ذلك من جمع معظم قبائل المنطقة حوله بما في ذلك قبيلة أولاد سيدي الشيخ بفرعيها الغرابة والشراقة، والت إليه زعامة الجنوب الغربي سنة 1881م ،حيث اكتفى الفرنسيون بالدفاع فقط طوال شهور فصل الصيف الحارة، وأمام هذا الضغط الذي فرضه الشيخ بوعمامة على الفرنسيين، اضطر الضابط نيقريي رئيس معسكر البيض

1- سعد الله، ابو القاسم ،الحركة الوطنية، ص، 299.

بنسف ضريح سيدي الشيخ أو عبد القادر بن محمد مؤسس الطريقة الشيخية بمدينة الابيض سيدي الشيخ، يوم 16 اوت 1881 م انتقاما من حركة بوعمامة[1].

فكان لهذا الحادث اثر بالغ في تطور الأحداث وتوسع الثورة، حيث أعلن سليمان بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة انضمامه إلى حركة بوعمامة، وكرد فعل على ذلك ركز الفرنسيون قواتهم في كل أنحاء منطقة الجنوب الغربي، وما يحيط بها مثل العين الصفراء وعين بن خليل والعريشة وراس الماء ومشرية والبيض وسبدو والضاية وسعيدة، وخيثر وفرندة، وأقاموا خطا دفاعيا على مناطق التل حتى يؤمنوا حياة المعمرين الأوروبيين[2].

لقد تسبب هذا الحادث في الانتشار السريع للثورة خلال سنوات 1881-1882-1883، حيث تحالف أولاد سيدي الشيخ الغرابة والشراقة لمواجهة قوات الاحتلال، كما انضوت القبائل الكبرى والمعروفة في المنطقة تحت لواء بوعمامة مثل قبائل حميان والعمور وذوي منيع، وبني غيل، فضلا عن انضمام أبناء قصور المنطقة إلى المقاومة.

لقد سارع الفرنسيون إلى معالجة هذا الإجراء الخطير، الذي يمس صميم عقيدة المجتمع بالمنطقة في تقديس الأولياء الصالحين من المرابطين والأشراف، وكل ما يتصل بهم من أضرحة وقباب وزوايا وأوقاف وغيرها، عبر ثلاث حلول هي :

* الحل الأول :استمالة سليمان بن قدور زعيم الغرابة واستعماله في إعادة كل أفراد عائلة أولاد سيد الشيخ في الجزائر، ولكن فشل تحقيق هذا الحل.

1- بوعزيز، يحي ،موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج 1 ،دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004م، ص، 742.

2- المرجع السابق، ص، 743.

*الحل الثاني : اقترحه الجنرال قراند – *grand* – حاكم منطقة معسكر وهو يقضي باستمالة سكان –ذوي منيع– واستعمالهم ضد عائلة أولاد سيد الشيخ للقضاء عليهم بصفة نهائية، غير أن هذا الحل لم يلقى استحسانا من الدوائر العسكرية بالجزائر.

*الحل الثالث: اقترحه الجنرال طوماسين – *tomassine* – حاكم وهران، وعمل به، ويقضي باستمالة سي قدور ولد حمزة زعيم فرع الشراقة، والقائد الرابع لثورة 1864م ،فتوصل الفرنسيون إلى الاتفاق معه في ماي 1883م على الأمور التالية :

– تقوم السلطات الفرنسية بتجديد ضريح سيدي الشيخ جد الأسرة في مدينة الأبيض سيد الشيخ.

– تقدم السلطات الفرنسية تعويضا سنويا بمبلغ ستين ألف فرنك لسي قدور وأفراد عائلته عما صودر منهم منذ عام 1864م.

– يتم تعيين سي قدور ولد حمزة على راس قيادة كبيرة بالبيض، وتعيين عدد آخر من أفراد عائلته تحت سلطته في مناصب أخرى.

– يتولى سي قدور وأفراد أسرته إقناع كل أفراد عائلة أولاد سيد الشيخ الموجودين في المغرب بالعودة إلى الجزائر، وتم ذلك فعلا بعد عدة أسابيع من هذا الاتفاق[1].

من خلال المعطيات ندرك التكاليف الباهظة التي تحملتها فرنسا والتنازلات التي قدمتها لأولاد سيد الشيخ نتيجة مساسها بمقدسات أهل المنطقة، فلقد زاد تشبثهم بتلك المقدسات واستمر ذلك التمسك بالفكر الصوفي إلى يومنا هذا.

على المنوال السابق كان إعلان الشيخ الحداد الجهاد في صدوق حدثا خطيرا ،حوّل ثورة الحاج المقراني من مجالها المحدود إلى ثورة شعبية، ارتمى فيها معظم عناصر

1– بوعزيز، يحي، المرجع السابق، ص، 745.

النمجتمع خاصة الإخوان الرحمانيين، في عمالتي الجزائر وقسنطينة، واندفع إلى الثورة في اقل من شهر أكثر من مائة وعشرين ألف مجاهد، في حين لم يستطع المقراني قبل ذلك أن يجند أكثر من خمسة وعشرين ألف مجاهد من مناطق برج بوعريريج وسور الغزلان وبوسعادة[1].

لقد استقطبت ثورة الزاوية والطريقة الرحمانية اهتمام المثقفين الفرنسيين، فادعى سيميان – *simian* – بان الزوايا الدينية لم تبقى مكانا لتعليم القران فقط ومأوى للبؤساء ،و إنما تحولت إلى مراكز للثورة بزعامة أصحاب الساعة من اجل القضاء على المسيحيين[2].

كانت خسائر فرنسا فادحة أثناء إخمادها لهذه المقاومة، وظلت متخوفة من زعمائها الروحيين حتى بعد إلقاء القبض عليهم، فالشيخ الحداد لم يعش إلا أياما معدودة بعد صدور الحكم عليه، وروي عنه انه قال بعد سماعه الحكم :(لقد حكمتم علي بخمس سنوات وأراد الله خمسة أيام) فتوفي يوم 29 ابريل 1873م، وقد أوصى بان يدفن في مقبرة آبائه وأجداده في صدوق ولكن السلطات الفرنسية رفضت ذلك، لأنها كانت تخاف أن تتحول جنازته إلى مظاهرة كبيرة تحيّي من جديد العواطف الثورية وتدفع الإخوان إلى التكتل والثورة من جديد[3].

أما ابن الحداد الشيخ عزيز فقد تولت السلطات الفرنسية تسميمه، وعندما جهز جثمانه لاستقدامه إلى الجزائر العاصمة، اكتظ ميناء العاصمة بالجماهير، وهي تنتظر وصول جثمان الفقيد، وخوفا من وقوع اصطدام بين الجماهير الثائرة والقوات الاستعمارية، وجهت

1- بوعزيز، يحي ،وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989،ص، 19.

2- المرجع السابق، ص، 20.

3 – المرجع السابق ،ص، 45.

الباخرة إلى ميناء سكيكدة، وهناك ظهر لهم دفنه إلى جانب أبيه في مقبرة قسنطينة، فكتبت اثر ذلك جريدة فرنسية قائلة : (إن فرنسا أصبحت تخشى حتى من الموتى.) [1] هكذا فان قداسة هؤلاء الأعيان المتصوفة تزداد بعد موتهم أكثر مما كانت عليه أثناء حياتهم.

خاتمة:

رغم أن الاستعمار الفرنسي تمكن من إدراك حقيقة العقيدة الدينية للجزائريين، وحاول أن يستغل نقاط الضعف فيها، إلا أن زعماء المقاومة الشعبية الجزائرية، كان استثمارهم للفكر العقدي الجزائري بفعالية أكثر، من خلال إحياء فريضة الجهاد الإسلامي، وتكريس فكرة المهدي المنتظر أو مولى الساعة، وتقديس المؤسسات الصوفية ورجالها.

لقد ظهرت بعض الانحرافات في الفكر العقدي الجزائري فيما يتعلق في المبالغة في تقديس أعيان التصوف وأضرحتهم وقبابهم وكل ما يرتبط بهم، إلا أن تلك المقدسات كانت من أهم العوامل الموحدة للشعب الجزائري في وجه الاحتلال، هذا الشعب الذي غلب عليه النمط الريفي والنزعة القبلية خلال الحقبة الاستعمارية.

قائمة المراجع:

1-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائري تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، بدون تاريخ.

2-الاشرف ،مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1983.

3- بوعزيز، يحي ،موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ،ج1 ،دار الهدى ،الجزائر، 2004م.

1- المرجع السابق، ص، 49.

4-بوعزيز، يحي، وصايا الشيخ الحداد، ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1989.

5- تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس ،رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م.

6-سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ،دار الغرب الإسلامي، بيروت ،.1990

7-سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية ،ج1،ق1 ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، .1992

8-الفاسي، علال، محاضرات في تاريخ المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى ،معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ،.1955

9-ابن العقون، عبد الرحمان بن ابرهيم ،الكفاح القومي والسياسي ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،.1984

10-المدني ،توفيق ،كتاب الجزائر ،ط2 ،نشر دار الكتاب الجزائري ،1963.

11-الورتيلاني، الفضيل ،الجزائر الثائرة ،دار الهدى، الجزائر، بدون تاريخ.

